﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ٥٥﴾ [الروم: 55]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد تفصيل مراحل الدنيا يأتي تفصيلُ مراحلِ الآخرة وما يعتري الكفّارَ من الإنكارِ

لمّا ذَكَرَ في الآيات السابقة عَدَمَ انْتِفاعِ المُشْرِكينَ بِآياتِ القُرْآنِ، وشُبِّهوا بِالأمْواتِ والصُّمِّ والعُمْيِ، فَظَهَرَتْ فَظاعَةُ حالِهِمْ في العاجِلَةِ؛ أتْبَعَ ذَلِكَ في هذه الآية بِوصْفِ حالِهِمْ حينَ تَقومُ السّاعَةُ في استِصحابِ مُكابَرَتِهِمُ الَّتي عاشوا عَلَيْها في الدُّنْيا[1]، وأشار البقاعي إلى أن هذه الآية معطوفة على قوله تعالى في أوَّل السّورَةِ ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢﴾ [الروم: 12]، بعد أن ثَبَتَتْ قُدْرَتُهُ عَلى البَعْثِ وغَيْرِهِ، أو عَلى ما تَقْديرُهُ: فَيَوْمَ يُريدُ مَوْتَكم تَموتونَ، لا تَسْتَأخِرونَ عَنْ لَحْظَةِ الأجَلِ ولا تَسْتَقْدِمونَ[2]، وأقربُ من هذين التقديرين القولُ بأن موقعَ هذه الآية الكريمة من الآية السابقة أنها تستكمل الحديث عن مراحل الإنسان في الدنيا والآخرة، فبعد بيانِ أدلةِ التوحيد في خلقِ الإنسانِ في النشأة الأولى، ودلائلِ البعثِ والإعادةِ مرةً أخرى إلى الحياة، ذَكَرَ اللّهُ تعالى أحوالَ البعث ومقارنتها بأحوال الدنيا، وما يحدث يوم القيامة من مناقشات بين أهل الإيمان وبين المجرمين، وجهل الكفّار في الدنيا والآخرة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾: (سوع) يَدُلُّ على استِمرارِ الشَّيءِ ومُضيِّهِ، مِن ذَلِكَ السّاعَةُ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ، يُقالُ جاءَنا بَعْدَ سَوْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وسواعٍ، أيْ بَعْدَ هَدْءٍ مِنْهُ، وذَلِكَ أنَّهُ شَيءٌ يَمْضي ويَسْتَمِرُّ[3]، وهي جُزْء من آخر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 128.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 130.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوع).

اللَّيْل والنَّهار، وتُجمع ساعات وساعًا، وتصغّر سويعة، واللَّيْل والنَّهار مَعًا أربعٌ وعِشْرونَ ساعَة، وإذا اعتدلا فَكلّ واحِد مِنْهُما اثْنَتا عشرة ساعَة[1]، ويراد بها: جزء من أجزاء الزَّمان، ويعبّر به عن القيامة، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾، فالأولى هي القيامة، والثانية الوقت القليل من الزمان، وقيل: الساعات التي هي القيامة ثلاثة: السّاعَةُ الكبرى، هي بعث الناس للمحاسبة، والساعة الوسطى، وهي موت أهل القرن الواحد، والساعة الصّغرى، وهي موت الإنسان، فَساعَةُ كلّ إنسان موته، وهي المشار إليها بقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: 31][2]، والمراد بالساعة القيامَةُ، سُمّيَتْ بها لِأنَّها تَقومُ في آخِرِ ساعَةٍ مِن ساعاتِ الدُّنْيا، أو لِأنَّها تَقَعُ بَغْتَةً، وصارَتْ عَلَمًا لَها بِالغَلَبَةِ[3].

2) ﴿يُقْسِمُ﴾: (قسم) أصْلانِ صَحيحانِ يَدُلُّ أحَدُهُما على جَمالٍ وحُسْنٍ، والآخَرُ على تَجزِئَةِ شَيءٍ، فالأوَّلُ القَسامُ، وهو الحُسْنُ والجَمالُ، وفُلانٌ مُقَسَّمُ الوجْهِ، أيْ ذو جَمالٍ، والقَسِمَةُ: الوجْهُ، وهو أحسَنُ ما في الإنسانِ، والأصلُ الآخَرُ القَسمُ: مَصدَرُ قَسَمتُ الشَّيءَ قَسمًا، والنَّصيبُ قِسمٌ بِكَسرِ القافِ، فَأمّا اليَمينُ فالقَسَمُ، قالَ أهلُ اللُّغَةِ: أصْلُ ذَلِكَ مِنَ القَسامَةِ، وهيَ الأيْمانُ تُقْسَمُ على أولياءِ المَقْتولِ إذا ادَّعَوْا دَمَ مَقتولِهِم على ناسٍ اتَّهَموهُمْ بِهِ[4]، ومنه: أقسم بالله: حلف، كأنَّه جعله من قِسمه ومن نصيبه[5]، كقوله سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ﴾ [الأنعام: 109]، واستَقسَمتُهُ: سألته أن يَقسِمَ، ثم قد يستعمل في معنى قسم، قال تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌۗ﴾ [المائدة: 3][6].

3) ﴿لَبِثُواْ﴾: (لبث) أصل يَدُلُّ على تَمَكُّثٍ، يُقالُ: لَبِثَ بِالمَكانِ: أقامَ، ويقال: لبث يلبث فهو لابث ولبث لبثًا، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۚ﴾ [الأحقاف: 35][7]، والمعنى

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوع).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (سوع).
(3) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 494.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قسم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قسم).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (قسم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لبث).

المحوري ملازمةٌ للمكان ممتدّة، وهي المكث في المكان، وليس في القرآن من التركيب إلا اللُّبْث المكاني أو الزماني وهو منه[1]، وقيل: اللُّبث: الإقامة الطويلة، فهي أخص من الإقامة، فكل لبث إقامة، وليس كل إقامةٍ لبثًا[2].

4) ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: (أفك) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ وصَرفِهِ عَن جِهَتِهِ، يُقالُ: أُفِكَ الشَّيْءُ، وأفِكَ الرَّجُلُ: إذا كَذَبَ، والإفْكُ الكَذِبُ، وأفَكْتُ الرَّجُلَ عَنِ الشَّيءِ: إذا صَرَفْتُهُ عَنْهُ، ومنه قيل للرّياح العادلة عن المهابّ: مُؤْتَفِكَة، يَقولونَ: إذا كَثُرَتِ المُؤتَفِكاتُ زَكَتِ الأرْضُ[3]، والمعنى المحوري تغير حال الشيء جملةً من وجه إلى وجه، وكل ما جاء في القرآن من التركيب فهو بمعنى القلب عن الوضع الصحيح ماديًّا كما ذكر، أو معنويًّا كالقلب أو الصرف من الحق إلى الباطل[4]، فالإفك: كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه، قال تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ٣٠﴾ [التوبة: 30] أي: يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح، والمراد بقوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ هنا: أيْ يُصْرَفونَ عَنِ الصَّوابِ الَّذي مَنشَؤُهُ تَحَرّي الصِّدْقِ والإذْعانِ لِلْحَقِّ إلى الباطِلِ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بسبب شدة أهوال القيامة يلجأ الكفار إلى الكذب والإنكار كما اعتادوا في الدنيا

حينَ تقومُ القيامةُ ويبعثُ اللّهُ النّاسَ من قبورهم، يحلفُ الكفّارُ الآثمون أنَّهُم ما أقاموا في الدنيا أو في القبورِ غيرَ ساعةٍ واحدةٍ، أي: مدة قليلة من الزمانِ، قاصدينَ بذلك عدمَ قيامِ الحجةِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (لبث).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لبث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أفك).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أفك).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أفك).

عليهِم، وأنَّهُم لم يُنْظَروا مدةً معقولةً، حتى يُعْذَروا فيما هُم عليه من تقصيرٍ، فيُصْرَفون عن تقدير الحقيقةِ والواقعِ في مدة اللبث، كما كانوا يُصْرَفون من الحق إلى الباطل، ومن الصدق إلى الكذبِ، والمرادُ أنَّهُم كاذبونَ في قولهم: ما لبثنا غير ساعة، وفي حلفهم على الكذب، وأنَّهُم مغترونَ بزينة الدنيا ومتاعِها وزخرفِها، فإذا عَرَفوا ذلك ربما حَمَلَهم على تركِ العنادِ، وسلوك طريقِ الرشادِ، وفي هذا دلالةٌ على أن إصرارَهم على الكفرِ، صَرَفَهم عن التفكيرِ فيما هو حقٌّ وعنِ الاعتقادِ بالبعثِ واليومِ الآخرِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف في ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾:

استئناف الحديث عن أحوال الآخرة بعد الحديث عن مراحل الخلق في الدنيا

جاءتِ الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ عاطفة، فوصلت هذه الجملة بالجملة السابقة، لتوسطِ الكمالين: كمالِ الاتصالِ وكمالِ الانقطاعِ، فالجملتانِ خبريتانِ لفظًا ومعنى، ووُجِدت المناسبةُ المُسوِّغةُ للعطف، وهي استئنافُ الحديثِ عن أحوالِ الآخرةِ بعد الحديثِ عن مراحلِ خلقِ الإنسان، ولم يمنع من العطف مانع[1]، فوصل النَّظْمُ بينهما بالواو.

دلالةُ التعبيرِ بـ(يوم) دون (ليلة):

اليومُ الآخرُ يومٌ لا ليلَ بعده وهو آخرُ أيامِ الدنيا

عبّرَ النَّظمُ الحكيمُ بلفظِ (يوم) دون (ليلة) في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ لأن يومَ القيامةِ هو آخرُ يوم من أيام الدنيا، فلا يومَ بعدَه سواه، إذ اليومُ عندَ العربِ إنما يُسَمَّى يومًا بليلتِه التي قبلَه، فإذا لم يتقدَّم النهارَ ليلٌ لم يُسَمَّ يومًا، فيومُ القيامةِ يومٌ لا ليلَ بعدَه سوى الليلةِ التي قامت في صبيحتِها القيامةُ، فذلك اليومُ هو آخرُ الأيامِ، ولذلك سمّاه اللّهُ جلَّ ثناؤُه اليومَ الآخِرَ، ونعَته بالعُقْمِ،

(1) بسيوني فيود، علم المعاني، ص: 475.

ووصَفه بأنَّه يومٌ عقيمٌ؛ لأنه لا ليلَ بعدَه[1]، ومن هنا فقد آثر النَّظم الحكيم استعمال اليوم دون الليلة، كما أنَّ لفظَ (اليوم) يشملُ في طياته الليلةَ إذا أُريدَ به العمومُ.

بلاغة تقديم الظرفِ (يوم):

تذكيرُ المجرمين بيوم القيامةِ وإثباتُ وقوعِهِ

قدَّمَ النَّظمُ الحكيمُ الظرفَ (يَوْمَ) على جملة: ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ خلافًا لمقتضَى الظاهرِ، إذ الأصل: (يقسمُ المجرمونَ ما لَبِثوا غيرَ ساعة يوم تقومُ الساعةُ)، وذلك للاهتمام بالمُتقدِّم، وهو ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ إذ المقصودُ الأولُ من الآية الكريمةِ تذكيرُهم بذلك اليوم، وهو يومُ القيامةِ، وإثباتُ وقوعِهِ، مع تهديدِهم وتحذيرِهم بما يكونُ فيه منَ الأهوالِ الجسام، كما أنَّ تقديمَ الظَّرفِ أعرقُ في البلاغة، قالَ ابنُ الأثير: وأما تقديمُ الظرفِ، فإنَّه إذا كان الكلامُ مقصودًا به الإثباتُ فإنّ تقديمَه أولى من تأخيرِه، وفائدتُه إسنادُ الكلامِ الواقعِ بعده إلى صاحبِ الظرفِ دون غيره[2].

دلالةُ التعبيرِ بالمضارع في ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾:

شـدَّةُ السّاعةِ وهَـوْلـها وطـول يومها

عبّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بالفعل المضارع ﴿تَقُومُ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ الذي يدلُّ على العزمِ والانتصابِ لفعل الشيء، وفي إيثارِ التعبيرِ بهذا الفعلِ دونَ غيرِه إشارةٌ لهَوْلِها وشدَّتِها، والمُرادُ بقيامِ الساعة: وجودُها، أو قيامُ الخَلائِقِ فيها من قبورِهم فَزَعًا وخَوفًا، وجاءَ الفعلُ ﴿تَقُومُ﴾ في صيغةِ المضارعةِ للدَّلالة على التجدّدِ والاستمرارِ، إشارةً لطولِ هذا اليومِ الشَّديدِ، حتَّى إنَّ فعلَ القيامِ ليبدو مُتجدِّدًا مستمرًّا، حتَّى وإنْ وقَعَ القيامُ دفعةً واحدةً، إلا أنَّ قيامَهم للجزاء يقع حالًا بعد حالٍ، فقيامهم مُتجدّدٌ، كما

(1) ابن جرير، جامع البيان: 1/ 278 - 279.
(2) ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر: 2/ 39.

أفادَ التَّعبيرُ بالفِعلِ المضارعِ ﴿تَقُومُ﴾ استحضارَ صورةِ القيامِ في نفوسِهِم، حتَّى يكونوا على ذكرٍ منه، وإن كانوا ينكرونه.

بلاغةُ المجازِ في إسنادِ القيامِ إلى السّاعةِ:

حالةُ القيامِ أقوى أحوالِ الإنسانِ

معنى قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾: يَثْبُتُ، ويمكن أن يكون القيام قد اسْتُعيرَ للثُّبوت تبعًا لتشبيه الساعةِ بإنسانٍ قائمٍ؛ لأنَّ حالة القيامِ أقوى أحوالِ الإنسانِ، إذ هو انتصابٌ للعملِ، ومنه قولُهم: قامت الحربُ على ساقٍ، إذا قَوِيَتْ واشْتَدَّت، ويجوزُ أن يُسند القيامُ إلى قيامِ الناس إسنادًا مجازيًّا، على المجاز العقليّ؛ حيث أُسند القيام إلى السّاعة، والمراد أهلها، فالعلاقة زمانيَّة[1].

دلالة التعريف بـ(أل) في ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾:

الساعةُ هيَ يومُ القيامةِ الذي يَشْهَدُ بعثَ الخلائقِ أجمعين

جاءتْ (أل) في كلمة ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ للعهدِ الذِّهنيّ، عَلى مَعْنى السّاعَةِ الَّتي تَقومُ فيها القيامَةُ التي يتنتظرها كلُّ الخلائق، فَلِذَلِكَ لَمْ تُعرَفْ أيُّ ساعَةٍ هي[2]، والمراد بها القيامَةُ الَّتي هي إعادَةُ الخَلائِقِ الَّذينَ كانوا بِالتَّدْريجِ في أُلوفٍ مِنَ السِّنينَ لا يَعْلَمُ مِقْدارَها إلّا اللّهُ تَعالى في أقَلّ مِن لَمْحِ البَصَرِ[3].

نكتة إيثار التعبير بـ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾:

إثباتُ البعثِ وأدلَّتِه وسرعةُ جزاءِ المكذِّبينَ به

المرادُ بـ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ ساعة جزاء المكذِّبين بالبعثِ والمنكرين لأحوالِ الآخرة، أي: ساعة البعثِ، وهو يوم القيامةِ، وعبَّرَ النَّظْمُ بالساعةِ دون القيامةِ؛ لأنَّها تَفْجَأُ الناسَ بَغْتَةً في ساعةٍ لا يعلمها إلّا الله سبحانه، وللإشعارِ بسرعةِ مجيئِها وسرعة إقامة البعثِ وجزاءِ المكذِّبين، ولما كانتِ السّورةُ تدورُ حولَ إثباتِ البعثِ وإقامةِ الدلائلِ عليه فقد ناسَبَها التّعبيرُ بالساعةِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 382.
(2) الزجاج، معاني القرآن: 4/ 191.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 130.

دونَ القيامةِ أو غيرِها من مُقارباتِها، كَما عَدَلَ النَّظْمُ الحكيمُ عن لفظِ (القيامة) ولم يَقُلْ: (ويومَ تقومُ القيامةُ)؛ تجنبًا لمثلِ هذا التكرارِ، ولأنّ معناه قد جاءَ في الفعل ﴿تَقُومُ﴾ فاستغنى عن إعادتِه بذكرِ القيامةِ.

نكتةُ التعبير بالمضارع في ﴿يُقْسِمُ﴾:

أوردَ البيانُ القرآنيُّ الفعلَ ﴿يُقْسِمُ﴾ في صيغةِ المضارعةِ؛ للدلالةِ على التجدّدِ والاستمرارِ، ففيهِ إشارةٌ لشدّةِ فزعِ الكفّارِ وما أصابهم من ذهولٍ، حتى إنَّهم لَيستمرّون في القسم تعبيرًا عن تعجُّبهم من قصرِ مدّة لبثهم في الحياةِ الدُّنيا والبرزخ.

تجدُّدُ قسَمِ المجرمين عن قِصَرِ مدةِ لُبثِهم في الحياةِ الدنيا والبرزخ

وعبّرَ النَّظْمُ بالفعلِ ﴿يُقْسِمُ﴾ دون الفعل (يحلف)؛ لأنَّ القسمَ أبلغُ من الحلفِ[1]، وذلك لأنَّ الكفار لمّا كانوا في حال من الذهول والمفاجأة فقد لجؤوا إلى المبالغةِ في تأكيدِ كلامهم.

نكتةُ التعبيرِ بالإجرامِ دونَ الكفر:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التعبير بقولِه: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ دونَ لفظِ الكفّارِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، رغم أنَّ لفظَ الكفّارِ أعَمُّ منهُ بِحَسَبِ المَفْهومِ وأشملُ، وإنَّما آثرَ ذلك اللفظَ تلطُّفًا بالمُؤْمنينَ في تَرْكِ الجَرائِمِ لِما فيهِ مِن إرشادِهِمْ إلى أنَّ الجُرْمَ مُطْلَقًا مَبْغوضٌ من اللهِ ﷻ، إذ لا يجتمع الإيمان والإجرام في قلب مؤمن، وفي التعبير بلفظ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ بيانٌ لآثار إجرامهم في الأرض وعاقبته، وتوبيخ لهم على سوء فعالهم[2]، وما ذاك إلا لأنَّهم عَريقونَ في الإجْرامِ جَرْيًا مِنهم عَلى دَيْدَنِ الجَهْلِ في الجَزْمِ بِما لَمْ يُحيطوا بِهِ عِلْمًا[3].

لطفُ الإشارةِ في تحذيرِ المؤمنينَ من الإجرام وتوبيخُ الكفّار بسوء الفعال

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 56.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/ 450.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 130.

دلالة التعبير بجملةِ: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾:

ذهولُ المشركينَ من هولِ ما وجَدوا من معاصيهم وزلّاتِهم ساعة البعث

جاءتْ جملةُ: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾ جوابًا للقسمِ على المعنى في قولِه تعالى: ﴿يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾؛ إذ لو حُكيَ قولهم لقيل: ما لبثنا[1]، والمرادُ أنَّهُم يُقْسِمونَ أنَّهُم لم يَلْبثوا في قبورِهم غيرَ ساعةٍ، كما ذكر بعض أهل التأويل، لكنَّ الأشبهَ أنْ يكونَ قولُه: ﴿يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾؛ أيْ: في الدنيا التي هي دارُ الامتحانِ، لا في القبور، لأنَّهُم استقصَروا مقامَهم في الدنيا؛ تكذيبًا لما ثبت عليهِم من الزللِ والمعاصي وأنواعِ الكفرِ؛ يقولون: إنّا لَبِثْنا في الدنيا وقتًا لا يَكونُ مِنّا في مِثلِ ذلك الوقتِ وتلك المُدَّةِ هذا الزللُ وتلك المعاصي كلُّها[2].

دلالة النفي بـ ﴿مَا﴾ في ﴿مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾:

شدةُ إنكارِ الكفّارِ لطولِ مدةِ لبثِهم في الدنيا

استعملَ النَّظمُ الكريمُ ﴿مَا﴾ النافية في قوله سبحانه: ﴿يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾؛ للتعبير عن إنكار المشركين لمدة لُبثِهم في الدنيا، فكذَّبوا طول المقام فيها؛ كما كانوا يكذِّبون في الدنُيا، ويقولون: لا بعثَ ولا حياةَ بعد الموتِ ولا حسابَ.

نكتةُ اختيارِ اللُّبثِ دونَ المُكثِ:

اللّبثُ مرتبطٌ بوقتٍ محددٍ أما المكثُ فإقامةٌ مطلقةٌ غير محددة

آثرَ البيانُ القرآني التعبيرَ عن إنكارِ الكفّارِ للمدَّة التي أمضوها في الدنيا بالفعل ﴿لَبِثُواْ﴾ دون الفعل (مكثوا) في قوله تعالى: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾، وذلك لأن اللُّبثَ يرتبطُ بزمانٍ محددٍ ومقيدٍ، كما هو في الآية الكريمة، إذ حُدِّدَ اللبث بساعةٍ واحدةٍ، وأما الفعل (مكث) فيرتبط بالإقامة المطلقة غير المحدد في مكان بعينه، ومن ثم كان الأنسب التعبير بـ﴿لَبِثُواْ﴾ دون (مكثوا).

بلاغةُ القَصْرِ في قوله: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾:

في قولِ اللّهِ جَلَّ ثناؤُه: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾ جاءَ أسلوبُ

(1) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 115.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 292.

القصرِ بقصرِ الصِّفةِ على المَوْصوفِ، وهي الساعةُ، أو الوقتُ الزَّمَنيُّ مِنَ النهارِ قَصْرًا حَقيقيًّا ادعائيًّا، وطريقُ القصرِ ههنا: النَّفْيُ والاستثناءُ، وهو مستعملٌ في الأصلِ لِما يُنكِرُه المخاطبُ ولا يُقِرُّ به، وفي التعبيرِ به تخصيصٌ وتوكيدٌ ومبالغةٌ، وفيهِ بيانٌ لشدَّةِ فزعِ المُشركينَ يوم البعث، وتعبيرٌ عن مَدى إنكارِهم على أنفسهم لإضاعتهم حياتهم الدنيا هباءً بغير عملٍ نافعٍ، ولذلك عبّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بـ﴿مَا﴾ التي تفيدُ النفيَّ، و﴿غَيْرَ﴾ التي تفيدُ الاستثناءَ، وعَدَلَ عن استعمالِ (إلّا) التي هيَ الأصلُ في بابِ الاستثناءِ إلى (غير)؛ لأنَّ (غير) تشتملُ على عدد من المعاني لا تشتملُ عليها (إلّا)، "ذلك أنَّ ما بَعدَ (إلّا) هو المقصودُ بالاستثناءِ، وهو الذي يدورُ عليه الحكمُ أمّا في (غير) فإنَّ الكلامَ قد يدورُ على ما بعدَ (غير)، وقد يدور على (غير) نفسها، لا على المجرور بها، فـ (إلّا) تفيدُ القصرَ نصًا، أمّا (غير) فتفيدُ القصرَ تَضمُّنًا"[1].

قِصَرُ مُدَّةِ البقاءِ في الدُّنيا يُقابلُها طولُ الحسابِ في الآخرةِ

دلالةُ التعبيرِ بـ﴿سَاعَةٌ﴾:

المَقصودُ بالساعةِ في قوله جلَّ ثناؤُه: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ هو المقدارُ المعلومُ من الزَّمانِ الّذي يعيشُه الإنسانُ، الَّذي هو جزءٌ من أربعةٍ وعشرين جزءًا من اليوم[2]، والمقصودُ الوقتُ القليلُ مِنَ الزمانِ، وقد جاءَ التعبيرُ بها مفردةً غير مجموعةٍ لبيانِ حَقارتِها وقلَّتها، إذ عادةً ما يُعبَّرُ بها عَنِ الزَّمَنِ القصيرِ مَعَ وجودِ قرينةٍ، وأسهمَ مجيئها نكرةً في الدَّلالةِ عَلى قِلَّتها إذا ما قورنتْ بطولِ يومِ الحشرِ، أو بطولِ مدَّةِ اللُّبثِ في الدنيا، فَهُم إنَّما يَزْعُمون قلّة مُدَّتهم في الدنيا في مُحاولةٍ بائسةٍ يائسةٍ لالتماسِ المعذرةِ في الآخرة، وذهبَ أبو السعودِ إلى أنَّهُم إنَّما استقلّوا مُدَّةَ لُبثِهِم نسيانًا، أو كذبًا، أو تَخمينًا[3].

تقليلُ مُدَّةِ لُبثِهم في الدنيا محاولةٌ بائسةٌ لالتماسِ المَعذرَةِ في الآخرة

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/ 263.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوع).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 66.

بلاغةُ الجناسِ التّام في الآية:

تقريع المشركين والاستهزاء بهم

اتَّفقت كلمتا ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ و﴿سَاعَةٌ﴾ في الحروفِ والضَّبطِ، واختَلفَتا في المعنى في قولِ اللهِ جلَّ ثناؤُه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾، وهو المُسمَّى في عِلمِ البديعِ بالجناس التام، إذ المعنَى في الأولَى يومُ القيامةِ، وفي الثانيةِ الوقتُ المحدَّدُ من أربعةٍ وعشرينَ جزءًا من اليوم، وقد جاءَ الجناسُ في هذه الآية الكريمةِ على أحسنِ صورةٍ وأجملِ موقعٍ فلا تَكلُّفَ فيهِ ولا تَصَنُّعَ، ولا جَورَ على المعنى لحسابِ اللَّفْظِ، ولا اقتصارَ للفظ بدونِ دلالةٍ حَسَنَةٍ، فأمالَ الآذانَ لحسنِ الإصغاءِ إليه؛ لأنَّ اللَّفْظَ المُشتركَ إذا حُملَ على معنًى ثُمَّ جاءَ والمرادُ به معنًى آخرَ كان للنَّفسِ تشوقٌ إليه، كما أنَّ التوافقَ في الصورةِ واقترانَ الأشباهِ والنظائرِ بعضها ببعض تميلُ إليه النُّفوسُ بالفطرة، وتأنسُ به وتغتبطُ ويطمئنُّ إليه الذوقُ لأنَّه نظامٌ وانسجامٌ وائتلافٌ[1]، وقد أسهمَ هذا الجناسُ التّامُّ في تصويرِ مدى حسرةِ الكفّارِ يوم القيامة، وشدّة الشماتة بهم، ليَكونوا هُزْأةً لأهْلِ النُّشورِ، ويَتَّضِحُ غَلَطُهم وسوءُ فَهْمِهِمْ[2] بإنكارهم للبعث والآخرة.

علّةُ فصلِ جملة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ عمّا قبلها:

أوهامُ الكفّار صارفةٌ لَهُم عنِ اليقين مهما تواترتِ الأدلّةُ وسيقت الحُجج

فَصَلَ النَّظْمُ الحكيمُ جملة: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ عمّا قبلها؛ لشبهِ كمالِ الاتصالِ بينهما، إذ جاءتْ جُمْلَةُ ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ اسْتِئْنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ غَرابَةَ حالِهِمْ مِن فَسادِ تَقْديرِ المُدَّةِ والقَسَمِ عليه مَعَ كَوْنِهِ تَوهُّمًا يُثيرُ سُؤالَ سائِلٍ عَنْ مَثارِ هَذا الوهمِ في نُفوسِهِم فَكانَ قَولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ بَيانًا لِذَلِكَ، ومَعْناهُ: أنَّهُم لا عَجَبَ في صُدورِ ذَلِكَ مِنهم فَإنَّهم كانوا يَجيئونَ بِمِثْلِ تِلْكَ الأوهامِ مُدَّةَ كَوْنِهم في الدُّنْيا، فَتَصْرِفُهم أوهامُهم عَنِ اليَقينِ،

(1) عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني: 2/ 442 - 444.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 129.

وكانوا يُقْسِمونَ عَلى عَقائِدِهِمْ كَما في قَوْلِهِ ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ [النحل: 38] اسْتِخْفافًا بِالأيْمانِ، وكَذَلِكَ إشارَةً إلى انْصِرافِهِمْ عَنِ الحَقِّ يَوْمَ البَعْثِ[1].

معنى (الكاف) في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ﴾:

يُصرفُ الكافرونَ عنْ حقيقةِ لُبْثِهم كما كانوا يصرفونَ عَنِ الحَقِّ في الدُّنْيا

جاءَتْ الكافُ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ إمّا اسميَّةً، بمعنى (مثل)، فتكونُ صفةً لمصدرٍ محذوفٍ، أي: نائبةً عن المفعولِ المطلقِ، أي: يُؤفَكونَ إفكًا مثلَ ذلك الإفكِ، أي: مثلَ ذلكَ الصَّرفِ كانوا يُصرفونَ عن الصِّدقِ، أو: مثلَ ذلكِ الإفكِ كانوا يُؤْفَكونَ في الاغترارِ بما تَبيَّن لهُم الآنَ أنَّه ما كان إلّا ساعةً، واسمُ الإشارة في محل جرٍّ مضافٍ إليه، واللّامُ للبُعدِ، والكافُ للخطابِ، وإمّا حرفُ جرٍّ، و(ذا) في محلِّ جرٍّ، والجارُ والمجرورُ متعلقانِ بمحذوفٍ نائبٍ عن المفعولِ المطلقِ[2]، فَهُم كما صُرِفوا عن حقيقةِ لُبْثِهم في الدُّنْيا أو في القبورِ؛ كانوا يُصرفونَ عن الحقِّ في الدُّنْيا[3].

بلاغةُ التشْبيهِ في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

شناعةُ الكذبِ والاستكبارِ في الدُّنيا تؤدّي إلى الصرفِ عنِ الحقِّ في الآخرةِ

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مُركَّبٌ من كاف التشبيهِ واسم الإشارةِ، والمُشارُ إلَيْهِ هو المُشَبَّهُ بِهِ، والمُشَبَّهُ مَحْذوفٌ دَلَّ عليه كافُ التَّشبيهِ، والتَّقديرُ: إفكًا مِثلَ إفكِهِم هَذا كانوا يُؤفَكونَ بِهِ في حَياتِهِمُ الدُّنيا، وهو تشبيهُ معقولٍ بمعقولٍ، فالمشبّهُ صرفُهم عن الحقِّ في الآخرةِ، والمُشبَّهُ به صرفهم عن الحق في الدنيا، والمَقصودُ مِنَ التَّشبيهِ المُماثلةُ والمُساواةُ[4].

دلالةُ التعبير باسم الإشارةِ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

آثر النَّظمُ القرآنيُّ استعمال اسم الإشارةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في قولِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 129 - 130.
(2) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 116.
(3) محمد عبد اللطيف الخطيب، أوضح التفاسير، ص: 498.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 129 - 130.

الدلالةُ عَلى بعدِ الكُفّار عن إصابةِ الحقِّ في الدُّنيا والآخرةِ

جلَّ شأنُه: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾ الموضوع للبعيد؛ للدلالةِ على شدَّةِ بُعدهم عن الحقِّ بتكذيبهم بالبعثِ وإعراضهم عن الإقرارِ والاعترافِ به في الدُّنيا[1]، فَهُم كَذلك بَعيدون عن إصابة الحقِّ في تقديرِ مُدَّةِ لُبثِهم يومَ البعثِ.

نكتةُ التعبيرِ بالكونِ ولطيفةُ صَوْغِه ماضيًا:

تجدُّد كذبِ المجرمين في الماضي وتحزينهم لفواته

عَدَلَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِه جَلَّ ثناؤُه: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾ عنِ التَّعبيرِ على مُقْتَضَى الظّاهرِ بأنْ يكونَ النَّظمُ: (كَذلك أُفِكوا) إذا كان المقصودُ مجردَ الدلالةِ على صرفِهم عنِ الحقِّ، فَضَلًا عن الدلالةِ على وقوعِ الفعلِ في الماضي، ولكنّ البيانَ القُرآنيَّ أتَى بزيادةِ الفعلِ ﴿كَانُواْ﴾ على أصلِ المعنى، لنكتٍ دقيقةٍ، فذهبَ البِقاعيُّ إلى أنَّ الفعلَ ﴿كَانُواْ﴾ أثبتَ لَهُم كَوْنًا هو كالجِبِلَّةِ[2] فلا ينفكّونَ عنها، أمّا ابنُ عاشور فذهبَ إلى أنَّ إقْحامَ فِعْلِ ﴿كَانُواْ﴾ للدَّلالَةِ عَلى المُضيِّ، أي: أنَّ المُرادَ: في زَمانٍ قَبْلَ ذَلِكَ الزَّمَنِ، أي في زَمَنِ الحَياةِ الدُّنيا[3].

دلالةُ التعبيرِ بـ﴿يُؤۡفَكُونَ﴾ مادةً وصيغةً:

الانصرافُ عن الحقِّ سَجيَّةٌ متأصلةٌ في نُفوسِ الكفّارِ

الأفكُ بِفَتحِ الهَمزَةِ: الصَّرفُ، والمرادُ بِهِ ههنا أنْ يُسلِّطَ اللّهُ على الكفارِ ما يَصْرِفُهم عن التصديقِ بالحقِّ والإيمانِ به، ما داموا مُكَذِّبينَ معرضين عن الآخرة، لَمْ يُخْلِصوا للّه العِبادَةَ في كُلِّ أحْوالِهِم، وجَميعِ أقْوالِهِم وأفْعالِهِم، فَيَقَعوا في خَبْطِ العَشْواءِ وحَيْرَةِ العَجْباءِ[4]، ودلَّ التعبيرُ بالمضارعِ أنَّهُم كانوا كَذلك حتَّى صارَ ذلك خُلُقًا تَخَلَّقوا بِهِ وصارَ لَهم كالسَّجيَّةِ في حَياتِهِمُ الدُّنْيا، حَتَّى إذا أعادَ اللّهُ إلَيْهِمْ أرْواحَهم صَدَرَ عَنْهم ما كانوا تَخَلَّقوا بِهِ، وفي بناءِ الفعلِ للمفعولِ إيجازٌ عظيمٌ للعلمِ بالفاعلِ، فضلًا عن أنّ في حذفِ

(1) الصاوي، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين: 5/ 249.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 129.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 130.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 471.

الفاعل دعوة للمخاطبين إلى الانشغال عنه بالفعل نفسه، وفي هَذا الخَبَرِ أَدَبٌ عَظيمٌ لِلمُسلِمينَ أَنْ يَتَحامَوُا الرَّذائِلَ والكَبائِرَ في الحَياةِ الدُّنْيا خَشْيَةَ أَنْ تَصيرَ لَهم خُلُقًا فَيُجْشَروا عَلَيْها[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القسم والحلف واليمين:

القسمُ أبلغُ من الحلفِ والحلفُ في الاستعمالِ القرآنيّ عادةً لليمينِ الكاذبةِ

القسم أبلغ من الحلف؛ لِأن معنى قَوْلنا: أقسم بِاللّه، أنه صار ذا قسم بِاللّه، والقسم: النَّصيب، والمراد أن الَّذي أقسم عليه من المال وغَيره قد أحرزه ودفع عَنهُ الخصم بِاللّه، والحلف من قَوْلك سيف حَليف، أي: قاطع ماض، فَإذا قلت: (حلف بِاللّه) فكأنَّك قلت قطع المُخاصمَة بِاللّه، فالأول أبلغ لِأَنَّهُ يتَضَمَّن معنى الآخر مَعَ دفع الخصم فَفيهِ مَعْنيانِ، وقَوْلنا: (حلف) يُفيد معنى واحِدًا، وهو قطع المُخاصمَة فَقَط، وذَلِكَ أن من أحرز الشَّيء بِاستِحْقاق في الظّاهِر فَلا خُصومَة بَينه وبَين أحد فيهِ، ولَيسَ كل من دفع الخُصومَة في الشَّيْء فقد أحرزه، واليَمين اسم للقسم مستعار؛ وذلك أنهم كانوا إذا تقاسموا على شَيْء تصافقوا بأيمانهم، ثمَّ كثر ذَلِك حَتَّى سمي القسم يَمينًا[2]، كما أنَّ من الخصائص الدقيقة للنظم القرآني أن تأتي كلمةُ الحلف عادةً في سياق اليمين الكاذب، فقد جاءت مادة (حلف) في ثلاثةَ عشرَ مَوْضِعًا، كُلُّها بغيرِ استثناءٍ في الحِنْثِ باليمين، والغالبُ أن يأتي الفعل مسندًا إلى المنافقين، وجاء الفعل مرة واحدة مسندًا إلى ضمير (الذين آمنوا) فوجبت عليهم كفارة الحَلْف، وأما القسم، فيأتي في الأيمانِ الصادقةِ، وليس المجرمون هنا بكاذبين إذ يُقْسِمون يومَ تقوم الساعة ﴿مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾، إذ القسمُ ههنا يعبِّر عمّا أصابَ نُفوسَهم من ذهولٍ وفزعٍ، لعدم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 130.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 56.

انتفاعهم بمدة لبثهم في الدنيا، ومن هنا يمكن القولُ إن الاستعمالَ القرآنيَّ يلفتُ إلى فرق دقيق بينهما، فإن لم نقل إن القسمَ لليمينِ الصادقةِ - حقيقةً أو وهمًا - والحلف لليمين الكاذبة على إطلاقها، فلا أقل من أن يكون بين دلالتهما الفرقُ بين العامِ والخاصِ: فيكونُ القسمُ لمطلقِ اليمين بعامة، ويختص الحَلْفُ بالحنثِ في اليمين، على ما اطَّرَدَ استعمالُه في البيانِ القرآني[1].

(1) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن، ص: 221 - 224.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والأربعون،
سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 43 ، 816 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-94-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 43 : المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-94-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9381682 بتاريخ 2024/12/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»